الحصن المنيع (٣)

ها هم أولاء الأبطال الأمجاد من جند الله ينفضون عنهم غبار القادسية (١٥ هـ) ، فرحين بما آتاهم الله من نصر ، مغتبطين بما كتب لإخوانهم الشهداء من أجر ، متشوقين إلى معركة أخرى تكون صنواً للقادسية في روعتها وجلالها ، آملين أن يأتيهم أمر الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بمواصلة الجهاد لاجتثاث العرش الكسروي من جذوره . فرغم قتل المسلمين في القادسية لأكثر من ٤٠ ألف جندي من الفرس ، وقتل قائدهم العام رستم وقائد مقدمة جيشه الجالينوس وبعض أكبر قادته ، إلا أن فلولاً كبيرة من الفرس قد هربت من أرض المعركة وفرت يميناً وشمالاً . لقد كان جيش المسلمين في القادسية قوامه ٣٦ ألف جندي ، قاتل جيشاً جراراً من الفرس تعداده أكثر من ١٢٠ ألف جندي ، تقدمهم ٧٠ فيلاً يحملون الرماة والمحاربين .. ومع كل ذلك العدد والعتاد والأفيال الضخمة ، فقد انهزموا وقُتل أكثر من ثلث الجيش الفارسي .

لقد قُضِيَ على أكثر من ثلث ذلك الجيش ، لكن ما زال هناك منه قرابة الثلثين أو أقل . وهذا يعني أنَّه لا تزال للعرش الكسروي الفارسي قادةً

---

(٣) المصدر : كتاب صور من حياة الصحابة لعبدالرحمن رأفت الباشا .. بتصرف .

وآلافٌ من الجنود تذود عنه لم يَفْنَوا بعد ، إذاً لا بدَّ من تتبع الجيش الفار واقتلاع سطوته إلى الأبد ، فمتى يأتي أمرك يا أمير المؤمنين ؟

لم يطل رجاء الغر الميامين وتشوقهم كثيراً ، فها هو ذا رسول الفاروق يقدم من المدينة إلى الكوفة ومعه أمر من الخليفة لواليها أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – بالمضي بعسكره والالتقاء مع جند المسلمين القادمين من البصرة ، ثم الانطلاق معاً إلى الأهواز لتتبع الهرمزان والقضاء عليه (فالهرمزان كان قائد الميمنة في جيش الفرس في معركة القادسية ، وأصبح الآن قائد جيوش الفرس جميعاً بعد موت رستم) . كذلك جاء في الرسالة أن يصحب أبو موسى معه مجزأة بن ثور السدوسي – رضي الله عنه – سيد بني بكر وأميرهم المطاع .

صدع أبو موسى بأمر خليفة المسلمين باللحاق بالهرمزان وجنده ، وأمره له بأن يصحب معه في جيشه مجزأة بن ثور السدوسي . وهنا .. التفت الناس إلى بعضهم بعضاً مستنكرين أو مستغربين حرص الخليفة على انضمام شخص مثل مجزأة السدوسي إلى جيش كبير منتصر ! أما نكفي نحن حتى يحرص الخليفة على هذا السيد ؟! من مجزأة بن ثور السدوسي هذا ؟

انتهى الجهر برسالة الخليفة ، فتجهز الجيش بسرعة وقسمه أبو موسى كالعادة إلى خمسة أقسام : قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وساقة (مؤخرة الجيش) ، وجعل مجزأة قائداً للميمنة . وصل جيش البصرة القادم من القادسية إلى الكوفة فانضموا إلى الجيش العام ، ومضوا جميعاً غزاة في سبيل الله .

فما زال جيش المسلمين يحرر المدن ويطهر المعاقل والحصون ، والهرمزان يفر أمامهم من مكان إلى آخر ، حتى بلغ مدينة تستر (وتسمى بالفارسية ششتر وتعني الجميلة) فاحتمى بحماها . إن مدينة تستر من أجمل مدن الفرس جمالاً وأبهاها طبيعة وأقواها تحصيناً ، وهي إلى جانب ذلك مدينةٌ عريقةٌ ضاربةٌ في أعماق التاريخ ، مبنية على مرتفع من الأرض على شكل حصان . يسقي المدينة نهر كبير يُدعى بنهر دُجَيْل ، وفي ساحتها شاذروان (منهل من الماء له حوض ونوافير ، فيه تماثيل حيوانات يخرج الماء من أفواهها) بناه الملك سابور (وبالفارسية شابور) ليرفع إليها ماء النهر من خلال أنفاقٍ حفرها تحت الأرض . لقد كان شاذروان تستر وأنفاقه عجيبة من عجائب البناء ، شُيِّد بالحجارة الضخمة المحكمة ، ودُعِّم بأعمدة الحديد الصلبة ، وربط هو وأنفاقه بالرصاص . كان حول

تستر سورٌ كبيرٌ عال يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم (قال عنه المؤرخون : إنَّهُ أول وأعظم سورٍ بُنِيَ على ظهر الأرض) .

ومع كل تلك التحصينات الطبيعية والبشرية ، فقد تمكن الهرمزان رغم ضيق الوقت وملاحقة جيش المسلمين له ، من حفر خندق عظيم حول سور المدينة يتعذر على الفرسان اجتيازه وتخطيه ، وحشد وراءه ألافاً مؤلفةً من خيرة جنود فارس . إنَّ الخندق حيلة حربية فارسية قديمة استعملها سلمان الفارسي - رضي الله عنه - في حماية المدينة المنورة من غزو الأحزاب في العام الخامس الهجري ، فالمسلمون قد ألفوا هذه الحيلة من قبل ويعرفون صعوبة التغلب عليها .. يا لها من مشكلة !

عسكرت جيوش المسلمين حول خندق تستر الكبير ، وظلت خلفه ١٨ شهراً لا تستطيع اجتيازه . لقد نصب الفرس من جهة مدينتهم جسوراً خشبية على الخندق لعبور فرسانهم وجنودهم إلى المسلمين . فإذا دارت معركة بينهم وبين المسلمين وشعروا بالإرهاق فيها ، عبروا الجسور إلى مدينتهم ورفعوها لكي لا يستطيع جند المسلمين اللحاق بهم وتخطي الخندق الكبير من طريق تلك الجسور .

خـاض المسلمـون مـع جيـوش الفـرس خلال تلك المدة التي أنهكتهم ٨٠ معركة ، وقلَّ معركة من هذه المعارك إلا وتبدأ بالمبارزة بين فرسان الفريقين ، ثـم تتحول بعد ذلك إلى حرب ضارية ضـروس . وقد أبلى مجزأة بن ثور السدوسي في هذه المبارزات بلاءً أذهل العقول وأدهش الأعداء والأصدقاء في وقت واحد ، فقد تمكن مبارزةً من قتل ١٠٠ فارس شجاع من فرسان الأعداء . فأصبح اسـم مجزأة السدوسـي يثير الرعب في صفـوف الفرس ، ويبعث النخوة في صدور المسـلمين . وعند تلك المشاهد من المبارزات والالتحامات .. أدرك الذيـن لم يكونـوا عرفوا مجزأة من قبل لِـمَ حرص أمير المؤمنين عمـر بـن الخطاب – رضي الله عنه – أن يكون هذا البطل الباسـل في عداد الجيش الغازي .

لقـد كانت ٨٠ معركة .. لكنها كانت جميعاً وعلى مدى ١٨ شـهراً خلف الخندق بعيدة عـن الحصن وأبوابه . إلى متى ونحـن ننتظر الانقضاض النهائـي على هذا الجيش الفارسـي ؟! إلى متى وهـذا الجيش ينعم بكل أنواع الطعام والشـراب والزرع في مدينته الجميلة وافرة الماء والزاد ، ونظل نحـن بعيديـن عن الإمداد والأعـوان ؟! ولعل بعضهم قد قـال : إلى متى ينعـم هؤلاء الفرس بلقاء الأهل والأطفال ، ونحن بعيدون عن ضم الأهل

والأحبـاب والأصحاب ؟ متى ينتهي هـذا الجمود ويحصل النصر النهائي الأكيد ؟ أو الفوز بالشهادة .. والشهادة غاية كل مؤمن ومريد ؟

وبعـد انقضاء ١٨ شـهراً والمسـلمون على مثل تلك الحـال من الضنك الشـديد .. جـاء الفرج الأول . ففي آخر معركة من تلـك المعارك الثمانين ، حمل المسـلمون على عدوهم حملةً باسـلةً صادقةً أرعبت الفرس وحراس الجسور ، فتركوا الجسور منصوبة فوق الخندق ، ولاذوا بمدينتهم مغلقين عليهم أبواب حصنها المنيع .

انتقل المسـلمون بعد هذا الصبر الطويل من حالٍ سيئةٍ إلى أخرى أشدَّ سوءاً !! فصحيح أن المسلمين قد عبروا الخندق العظيم ، لكن الفرس أخذوا يطردونهم بسهامهم الصائبة من أعالي الأبراج عندما يحاولون الاقتراب من أسوار المدينة . كما أنَّ الفرس كانوا يدلون من فوق الأسوار سلاسل من حديد ، في نهاية كل سلسـلة كلاليب وأشـواك متوهجة من شدة ما حُميت في النار ، فإذا رام أحد من جنود المسـلمين تسلق الأسوار أو الاقتراب منها ، أنزلوا هذه الكلاليب الحامية الحمراء عليه ، فأدخلوها بين لحمه وعظمه وجذبوه إليهم ، فيحترق جسـده ويتسـاقط لحمه ويقضـى عليه . إذاً هو

انتظارٌ آخر طويل ، أمام حصن عال منيع ، وسهام صائبة نافذة ، وكلاليب مستعرة قاتلة .. فما العمل ؟!

اشتد الكرب على المسلمين ، وأخذوا يسألون الله بقلوب ضارعة خاشعة أن يفرج عنهم وينصرهم على عدوه وعدوهم . فلا ناصر ولا مغيث ولا مجيب ولا كاشف للهم والغم إلا الله .. فإنه الركن إن خانتك أركان . فكثر الذكر والاستغفار والقيام والإلحاح بالدعاء . ربنا عجل فرجك وانصر جندك واخذل أعداءك يا سميع يا مجيب . استمر الحال على هذا أياماً وشهوراً ، وفي ليلة من الليالي .. وبينما أبو موسى يتأمل أمام خيمته سور تستر العظيم يائساً من اقتحامه أو عبوره ، سقط أمامه سهمٌ قُذف نحو خيمته من فوق السور العظيم . نظر أبو موسى إلى هذا السهم فإذا فيه رسالة تقول : لقد وثقت بكم معشر المسلمين ، وإني أستأمنكم على نفسي ومالي وأهلي ومن تبعني ، ولكم عليَّ إن أعطيتموني الأمان أن أدلكم على منفذ تنفذون منه إلى المدينة الحصينة .

كتب أبو موسى من فوره رسالةً فيها الأمان والعهد لصاحب السهم ، ثم قدَّر المكان والاتجاه الذي جاء منه السهم ، فقذف السهم بالقوس مرة أخرى

إلى ذلك المكان . وصل السهم إلى الرجل المجهول ، فاستوثق بأمان المسلمين وعهدهم لما عُرِفَ عنهم من الصدق والوفاء بالعهد ، فتسلل إليهم تحت جنح الظلام بعيداً عن عيون الهرمزان وأعوانه . فلما وصل الرجل إلى معسكر المسلمين ودخل خيمة أمير الجند أبي موسى الأشعري ، أفضى إليه بحقيقة أمره فقال : نحن من سادات القوم وأشرافهم ، وقد قَتَلَ الهرمزان أخي الأكبر وعدا على ماله وأهله ، ثم أضمر لي الشر في صدره ، حتى ما عدت آمنه على نفسي وأولادي ، فآثرت عدلكم على ظلمه ، ووفاءكم على غدره ، وعزمت على أن أدلكم على منفذ خفي تنفذون منه إلى تستر . فأرسل معي إنساناً يتحلى بالجرأة والعقل ، ويكون ممن يتقن السباحة حتى أرشده إلى الطريق .

استدعى أبو موسى مجزأة وأسرَّ إليه بالأمر وقال : أعني برجل من قومك أو برجل ممن عرفت وخبرت بعد كل هذه المعارك الضارية له عقل وحزم وجلد وقدرة على السباحة ، لأسند إليه هذه المهمة العظيمة التي قد يكون لنا بنجاحه فيها النصر والخلاص من هذا الحصار الممل الطويل . فقال مجزأة : اجعلني ذلك الرجل . فقال له أبو موسى : إذا كنت قد شئت فعلى بركة الله .

وقبل أن ينطلق مجزأة مع الدليل الفارسي ، أوصاه أبو موسى بأربع وصايا : أما الأولى : أن يحفظ الطريق ، وأما الثانية : أن يعرف ويحدد موضعَ أفضل وأسهل باب يستطيع جند المسلمين الدخول منه إلى قلب المدينة ، وأما الثالثة : أن يحدد مكان الهرمزان ويتثبت من شخصه وشكله ، وأما الوصية الرابعة والأخيرة : ألا يحدث أمراً غير ذلك .

مضى مجزأة تحت جنح الظلام مع دليله الفارسي شاداً سيفه وسهامه على ظهره ، فدخلا في نفق مظلم تحت الأرض يصل ويربط بين النهر والمدينة . كان للنفق هيئات شتى ، فتارةً يتسع حتى يتمكن العشرة من الناس من السباحة في مائه ، وتارة يضيق حتى يكاد الواحد أو الاثنان من الناس يلج فيه ، وتارة يكون الماء ضحلاً يستطيع الشخص المشي فيه ، وتارة يصبح غزيراً لا يقوى الإنسان على اجتيازه إلا بالسباحة ، وتارة يهدأ ماؤه ويصفو ، وتارة يهدر ماء النفق ويموج ويعلو ، وتارة تتشعب دهاليزه وطرقه ، وتارة تستقيم فلا ترى فيه إلا طريقاً واحداً .. وهكذا كان حال مجزأة مع هذا النفق المهلك وهذه المهمة الخطرة حتى بلغ قبيل شروق الشمس المنفذ والمكان الذي يستطيع الدخول منه إلى المدينة .

مكث الدليل الفارسي ومجزأة في مكانهما يراقبان المدينة بلا حراك أو صوت ، وذلك حتى يتمكن مجزأة من أداء كل وصايا أبوموسى له . وفي هذه الأثناء من الانتظار والترقب والفحص الدقيق .. نصح الفارسي مجزأة باختيار الباب الشرقي لدخول قوات المسلمين إلى المدينة ، فهو الأضعف تحصيناً والأقل حراسة ، كما أنَّه الأقرب إلى تجمع المسلمين وأكثر قواتهم . وعند بزوغ أول ضوء للشمس .. خرج الهرمزان من مخبئه فأشار الفارسي إليه وقال : هذا هو الهرمزان ، ذلك الذي تطلبون . فهمَّ مجزأة بأن يردي الهرمزان بسهم في نحره ، فهو ليس مجرد سيد بني بكر وفارسها ، بل هو راميها الماهر أيضاً . فما إن وضع سهمه في القوس وجرَّ وترها ، حتى تذكر وصية أبي موسى له بألا يحدث أمراً غير ما أوصاه به . فكبح جماح رغبته في رمي الهرمزان وعاد إلى معسكره من حيث جاء .

أطلع مجزأة أبا موسى على خبايا الرحلة وخطورتها ، فقال أبو موسى : الأمر الآن أمرك يا مجزأة ، فأنت من خبرت الطريق وشاهدت المدينة فعرفت الخفايا ولوازم اقتحام المدينة وعدته . فقال مجزأة : أحتاج إلى ٣٠٠ رجل لتنفيذ هذه المهمة يا أمير الجند ، فهي مهمة شاقة خطرة ، لا ينجو منها إلا الأشداء من الرجال .

اختار أبو موسى لمجزأة ٣٠٠ رجل من أشجع جند المسلمين قلباً ، وأشدهم جلداً وصبراً ، وأقدرهم على السباحة والعوم . ثم أمَّر أبو موسى عليهم مجزأة ، وودعهم وأوصاهم بطاعة أميرهم ، وجعل التكبير علامة على دعوة المسلمين لاقتحام المدينة من بابها الشرقي الذي أشار إليه الدليل الفارسي .

أمرَ مجزأة رجاله أن يتخففوا من ملابسهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى لا تشرب ملابسهم الماء ، فتحمل منه ما يثقلهم ويبطئ في ماء النفق سباحتهم وحركتهم . كذلك حذرهم مجزأة ألا يأخذوا غير السيوف لهم سلاح ، وأوصاهم أن يشدوا السيوف على ظهورهم شدًّا محكماً حتى لا تعيقهم في أثناء السباحة . وبعد هذه الوصايا والتعليمات الصارمة .. مضوا جميعاً في آخر الهزيع الأول من الليل وفي يد بعضهم مشاعل النيران تنير لهم ظلمة النفق وسواده .

ظلَّ مجزأة وجنده البواسل نحواً من ساعتين يصارعون عقبات هذا النفق الخطير ، فيصرعونها تارةً وتصرعهم تارةً أخرى . لقد كان الماء في بعض دهاليز النفق هادراً شديد الجريان يعيق تقدم أقوى الرجال

وأجلدهم ، لقد كان عمق الماء يمتد طولاً إلى مسافات تتعب أمهر السباحين وأسرعهم .. لقد كانت بحق مهمة ومغامرة خطيرة .

فلما بلغ مجزأة ورجاله قبيل الفجر المنفذ المؤدي إلى المدينة الحصينة وأبوابها الموصدة ، أدرك مجزأة أنَّ ماء النفق الهادر قد ابتلع ٢٢٠ رجلاً من رجاله ، وأبقى له فقط ٨٠ رجلاً . يا لهذه الكارثة .. لقد فقدت ثلاثة أرباع فرقتي ، لم يبق لي إلا الربع فقط .. مع العمل ؟

استشـــار مجـزأة من معـه من الأبطال الناجين ، فكانـوا على قلـب رجـل واحـد ، وكان جوابهم أنهـم لم يبلغوا هذا المبلغ مـن التخطيـط والتنفيـذ والجهد حتى يرجعوا من حيث أتوا ، فإما نصرٌ يفرح به المؤمنون وتكسـر به شوكة الأعداء ، وإما شهـادةٌ قد أتـوها طامعين تنقلهـم إلى فـردوس السعداء . فلما رأى مجزاة من فرقته تلك الحماسـة والاندفـاع .. عزم على تنفيذ الخطة وفتح باب المدينة لجيش المسلمين .

جرَّد مجزأة ورجاله سيوفهم ، وانقضوا انقضاض رجل واحد على حماة الباب الشـرقي ، الذين تفاجئوا بوجود هؤلاء الفرقة داخل تستر عند هذا

الوقت من الفجر . أغمد مجزأة وجنده السيوف في صدور الحراس ، ثم وثبوا إلى الأبواب وفتحوها وهم يكبرون .

تلاقت تكبيرات فرقة مجزأة من الداخل مع تكبيرات إخوانهم من المسلمين في الخارج ، فتدفق المسلمون عند الفجر على المدينة من بابها المفتوح ، ودارت بينهم وبين أعداء الله رحى معركة ضروس قلما شهد تاريخ الحروب مثلها هولاً ورهبةً وعدداً في القتلى .

وفيما كانت المعركة قائمة على قدم وساق ، أبصر مجزأة الهرمزان في ساحتها . هذه فرصته للنيل ممن يطلبه أمير المؤمنين ، هو الشخص الوحيد الذي رآه ويعرفه ، فقصده ووثب عليه بالسيف . فما كاد مجزأة يصل إلى الهرمزان ، حتى ابتلع الهرمزانَ موجُ المتقاتلين الذي مرَّ بينهما وأخفاه عن ناظريه .

ضاعت فرصة قتل القائد العام للفرس ومطلوب الخليفة ، فأخذ مجزأة يطلبه من جديد وسط كل هذه الجموع والخيل والغبار والطعن والضرب . إنَّ مجزأة يريده لا يريد سواه ، فقد جعلهم هذا العلج ينتظرون

قرابة السنتين خارج أسوار تستر .. لا بدَّ من إيجاده وقتله وكسر شوكة الفرس إلى الأبد . وبعد عناء من البحث والمراقبة .. لمحه مجزأة من جديد ، فاندفع إليه اندفاعةً هي أشد من الأولى في حماستها وضراوتها .

تصاول مجزأة والهرمزان بسيفيهما طويلاً ، وفي لحظة منتظرة .. انكشف رأس الهرمزان ، فعلاه مجزأة بضربة قاتلة ، اعترضها الهرمزان بسيفه في اللحظة الأخيرة ، فارتد سيف مجزأة من قوة الضربة إليه فأصابه في مقتل .

لقد خرَّ البطل الباسل مجزأة صريعاً على أرض المعركة ، لقد مات مجزأة ، لكنه مات وعيناه قريرتان بما حقق الله على يديه وعلى أيدي إخوانه من المجاهدين من فتح عظيم أُزيل به شوكة الفرس وخطرهم .

واصل جند المسلمين القتال حتى كتب الله لهم النصر ، ووقع الهرمزان أسيراً في أيديهم . فانطلق المبشرون إلى المدينة يزفون إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بشائر الفتح ، ويسوقون له أمامهم الهرمزان وعلى رأسه تاجه المرصع بالجوهر ، وعلى كتفيه حلته الموشاة بخيوط الذهب ، ليراه

الخليفة أمامه أسـيراً ذليلاً . لكن المبشـرين يحملون مع تلك التباشـير تعزية حارة للفاروق بموت فارسـه الباسـل المغوار مجزأة بن ثور السدوسي رحمه الله ورضي عنه وأكرمه في جناته .

opeikandl.com

رسالة تذكير

من سيد التابعين الحسن البصري إلى أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز . .

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومَفْزَع كل ملهوف . الإمام العادل كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ويدَّخر لهم بعد مماته . والإمام العادل كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته . والإمام العادل هو القائم بين الله وعباده ، يسمع كلام الله ويُسمعُهُم ، وينظر إلى الله ويُريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله ، كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق ماله . وأذكر يا أمير المؤمنين « إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور » ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل . فلا تحكم في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين . يا أمير المؤمنين لا يغرّنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحي القيوم .